الطريق الوحيد لبناء المجتمع

تعتبر الجماهير الشعبية المغربية الشهيد المهدي بنبركة رمزا للديمقراطية ورمزا للنضال ضد الاستبداد ومناهضة الاستعمار والأمبريالية، والمناضل العربي من أجل فلسطين والوحدة العربية. والكل لازال يذكر التضحيات والنضالات التي خاضها الشهيد من أجل المساهمة في ابتكار الطرق الصحيحة لاخراج المجتمع المغربي من التخلف والفقر والجهل، إضافة الى المحاضرات التي كان يلقيها بكل شجاعة فكرية، في الأوساط الشعبية، مهاجما الأساطير والخرافات والتقاليد العتيقة، بالرغم من وجود تيارات رجعية قوية تستعمل التهريج لمواجهة التقدميين.

ومن أهم المنجزات التي ساهم المهدي بقسط وافر في تحقيقها، بناء «طريق الوحدة» في جبال الريف غداة الاستقلال في صيف عام 1957.

كان مشروع طريق الوحدة يستهدف من الناحية العملية، بناء طريق عبر الجبال، توحد بين منطقة الريف التي كانت تحت النفوذ الاستعماري الاسباني، والجزء المحتل من طرف الاستعمار الفرنسي. طول الطريق 56كلم. ولتحقيق هذا المشروع، كانت بعض القيادات السياسية تريد فرض البناء بالوسائل «العصرية»، واعطاء المشروع لشركات رأسمالية مغربية كانت أو أجنبية. وكان التيار الشعبي داخل حزب الاستقلال، وخصوصا المهدي بنبركة، يدفع الى تطبيق تجربة جديدة، تفتح أمام اختيار بناء البلاد والمجتمع بفضل سواعد أبنائه وتوعيتهم.

وبالفعل تحمست الجماهير لهذه الفكرة الرائدة، وتقدم حوالي 50000 شاب، متطوعين لتحقيقها ولفرض هذا الاختيار، ووقع الاختيار على 11000 متطوع مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة تحقيق امتزاج بين كافة الأقاليم والفئات الشعبية. وتكونت المخيمات في الأوراش بشكل أصبح معه كل مخيم صورة مصغرة للمجتمع المغربي.

تشييد ووعي

والتقى الشباب المغربي رافعا السخرة والعمل محطما الصخور ومشيدا الوحدة. وكان هذا العمل عبارة عن سباق ضد الزمن مجسدا بذلك التحدي الذي اختاره الشعب المغربي ضد التخلف لقطع أشواط من التقدم وبناء الحضارة. ففي ظرف لم يتجاوز الثلاثة أشهر، كان من الضروري شق طريق جديدة عبر الجبال طولها 28 كلم، واعادة بناء وتوسيع طريق أخرى طولها 29 كلم، كل ذلك بقوة السواعد المتطوعة.

ولم يكن هذا العمل هو الأساسي في المشروع بل كان يخصص له خمس ساعات في اليوم فقط، ذلك أن الساعات الأخرى خصصت للتوعية وأن أساس المشروع كان، هو تكوين اطارات من أجل التجنيد المستقبلي لكل الطاقات الشعبية لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وتبعا لذلك جاءت المحاضرات محددة في ثلاث مراحل:

1 - التوعية لوضعية البلاد اقتصاديا واجتماعيا وتوحيد النظرة عن الواقع في البوادي والحواضر اضافة الى التوعية بضرورة النضال والعمل في آن واحد، بعد دراسة التجارب الأجنبية.

2 - دفع المتطوع الى المساهمة في التغيير كفرد في وسط الأسرة وفي اطار المؤسسات التي يعمل فيها.

3 - العمل على أن يكون المتطوع عنصرا واعيا بضرورة القيام بمجهود داخل الجماعة من أجل تحقيق التغيير على مستوى القرية أو الحي وخلق تعاونيات تستفيد من تجارب التعاونيات في العالم. اضافة الى تلقين المتطوع المبادئ النضالية النقابية.

4 - توعية المتطوع وتلقينه مبادئ الديموقراطية على المستوى الوطني وفهم مؤسسات الدولة العصرية التقدمية.

5 - اعطاؤه مهاما بعد انتهاء التطوع حتى يصبح مواطنا مناضلا في البادية أو المدينة.

وخلال هذه الفترة الزمنية القصيرة زودت الأوراش بمصالح صحية كان الهدف منها رفع المستوى الصحي للمواطنين في نفس الوقت الذي تبتكر فيه وسائل وأساليب لينة وفعالة مطابقة لخصوصيات المجتمع المغربي البدوي في العلاج.

وكانت مناسبة هذا التجمع الهائل وسيلة الى توعية المواطنين بضرورة محاربة الأمية بالتطوع لتعليم الرجل والمرأة المغربية كما كانت مناسبة لخلق وحدة فعالة بين فصائل القوات المسلحة والجماهير حيث أصبح الجندي والضابط يحتك بالعامل والفلاح مشاطرا اياه محنه ومشاكله، بينما يتعلم المدني المبادئ الأساسية لاستعمال السلاح للدفاع عن حوزة وطنه وفرض سيادة شعبه.

استمرار الاختيار ورعب الرجعية

لم يكن مشروع طريق الوحدة، كما تصوره المهدي ورفاقه المناضلون تجربة زمنية محدودة، بل على العكس من ذلك، مشروعا طويل النفس يتضمن بالأساس:

خلق منظمة «بناة الاستقلال» مكونة من المتطوعين من أجل الاستمرار في هذا النمط على المستوى المحلي لتحويل مجرى تاريخ هذا المجتمع وخلق عقلية اجتماعية جديدة مبنية على أساس التعاون ومناهضة الاستغلال والاستعباد وتنظيم مشاريع محلية أخرى كما كان الشأن في مراكش وتافراوت، في تنقية الأراضي الزراعية وحفر الآبار وبناء مخازن الحبوب وتشييد جماعات تعاونية للصناعة التقليدية.

القيام بمشاريع تطوعية من نوع طريق الوحدة كما تحقق ذلك في المنطقة الوسطى من الأطلس الكبير ببناء الطريق بين دمنات وسكورة طولها 75 كلم عبر الجبال.

عملية غابات الشباب التي تم فيها غرس حوالي 814000 شجرة خلال شتاء 57 - 58 وعمليات أخرى لصيانة المياه والطبيعة في صفرو، والجبيلات وبني ملال، اضافة الى عملية رفع انتاجية الأراضي الفلاحية في بني زمران واعادة بناء حي درب الجديد بالدار البيضاء بعد الحريق الذي ترك 12000 عائلة بدون مأوى، كل هذا تحقق بفضل السواعد المناضلة، بالاضافة الى مشاريع عدة أخرى.

الا أن النظام الرجعي سرعان ما شعر بخطورة المشروع الذي سيؤدي بالفعل الى قلع هياكله المتأخرة من جذورها، بتوعية الجماهير توعية تطعن في مصالح طبقاته البرجوازية، بإسناد بناء البلاد لأبنائها بدل الشركات الاحتكارية، رغم محاولته بالطبع الركوب على الموجة بالمساهمة الرمزية بهدف خنقها فيما بعد وفرض اختياراته.

الطريق الصحيح

لقد أصبحت طريق الوحدة بالنسبة للشباب المغربي، ليس فقط عملية بناء ملموس للهياكل التحتية للبلد، بل تعبيرا عن اختيارات أساسية ملزمة للفرد والمجتمع وبالأخص قواته التقدمية المناضلة.

فما أن انتهى المشروع حتى اندفع أغلب المتطوعين بنفس الفكر والعقيدة في أعمال ملموسة، فمنهم من تطوع مباشرة في الثورة الجزائرية ومنهم من التحق بالثورة الفلسطينية كالمناضل محمد بنونة وسليمان العلوي اللذان استشهدا في جبال الأطلس في مارس سنة 1973 ومعظم مجموعات المناضلين الاتحاديين الذين أعدموا في فاتح نوفمبر 1973 و سنة 1974.

إن طريق الوحدة تمثل أيضا الاختيار الصحيح لبناء الاشتراكية بناء بواسطة ولصالح القواعد الشعبية. وبفضل سواعد وتوجيه المناضلين الكادحين. إنه الاختيار الصحيح لكل القوى الاشتراكية الحقة في البلاد، اختيار ينبذ الأفكار المزيفة لفئة البيروقراطيين والتقنوقراطيين، الذين يسيطرون على قيادة الحركة التقدمية، ويوهمون الجماهير بأن مجتمع العدالة سيتحقق بأنصاف الحلول والمساومات، وبوضع القرارات الفوقية «التقدمية».

لقد أخرجت طريق الوحدة مجموعة من العمال والفلاحين، سكان المناطق النائية، من عزلتهم وانكماشهم الفكري، وحطمت البروج العاجية التي يتستر وراءها المثقف، فجمعت بين العمال والفلاحين والجنود والتجار والطلبة والعاطلين، للدفع بالكل نحو الوحدة من أجل التغيير والبناء.

لقد اختطف المهدي بنبركة «محرك» طريق الوحدة، فهل أزال النظام الذي اغتاله، صورته الرمزية من فوق طريق الوحدة، عبر جبال الريف، وهل قضى على الاختيار الثوري بالنسبة للمناضلين وكل التقدميين، والجماهير الشعبية كافة؟ إن استمرار نضال شعبنا يؤكد عكس ذلك □